

لتسامح الديني بين النصوص والواقع.

«محاولة للفهم»

أ: بو جمعة جاب الله^١

مقدمة:

شكلت ظاهرة التسامح مع الآخر المخالف دينياً وعقدياً أولى الامتحانات التي خضعت لها عديد النصوص الدينية حين أنزلت لواقع التجربة البشرية، ولم تكن النصوص الدينية الإسلامية استثناءً في هذا الأمر... لأن تجربة الإسلام مرت بمرحلتين الضعف والقوة، وفي كلتا المرحلتين كانت النظرة إلى الآخر تأخذ زاوية مغايرة قد تصل حد التناقض _ أو هكذا يفهم ظاهرياً من النصوص الدينية _ . ضمن هذا السياق الجدلي لتعدد المعاني، بتعدد الفهم والأحداث، تأتي هذه المحاولة للفهم والإضاءة حول بعض مناطق الظل من تاريخنا، غرضنا من هذا الحفر إثارة النقاش حول مفهوم طالما اختصر ضمن مجال الوعظ، وذلك في إغفال واضح لبُعده البشري إنتاجاً ودلالة وممارسة.

أولاً: التسامح، المنشأ والدواعي⁽¹⁾:

لم يطفوا هذا المفهوم فجأة على سطح التداول بين المفكرين والباحثين، وإنما جاء اكتشافه تدريجياً، كضرورة أملتتها الحروب الدينية التي اجتاحت المجتمع الأوروبي، حيث كان «مرسوم نانت، Edit de Nante»، 1598 إعلاناً للتهدة بين كل المذاهب الدينية، والسماح لها بحرية العبادة والمعتقد، وفي الوقت نفسه تعبير عن نهاية الحروب الدينية في فرنسا، وإشاعة أجواء التسامح مع أتباع البروتستانت الكالفينيين.

في نفس الوقت، نجد أن المفهوم نما في عصر الأنوار ضمن السيرة التي ستنتج فيما بعد هذا المفهوم، حيث كانت رسالة التسامح لـ«جون لوك»، من أقدم الرسائل التي ألفت في هذا المجال، أين يعرف التسامح بأنه: «هو ما يميز الكنسية الحقة». فالمسيح يقول: «سمعت أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم، باركوا لأعدائكم، أحسنوا إلى مبغضكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات...»⁽²⁾.

وقد كان «جون لوك» رافضاً لفكرة إجبار الناس على اعتناق عقائد معينة، مؤمناً وداعياً لاستخدام وسيلة السلام والأسوة في نشر العقائد. أما «جون جاك روسو»، فقد جعل من التسامح والرأفة أساساً لعقده الاجتماعي، فالرأفة والتسامح عاطفة طبيعية فطرية مجبول عليهما كل فرد، شرط أن يترك على سجيته الأولى.

أما محمد أركون، فلقد رأى بأن التسامح كمفهوم حديث لم يكن موجوداً أصلاً في التراث الإسلامي، المسيحي أو اليهودي، وإنما كان نتيجة التطور التاريخي الغربي، الذي تخلص من السياجات اللاهوتية التقليدية عقب عصر الأنوار الأوروبي⁽³⁾.

ثانياً: التسامح في التراث الإسلامي.

1. مفهوم التسامح في القرآن الكريم:

لا يوجد لفظ التسامح في كل سور القرآن الكريم، هذا الغياب في كتاب المسلمين المقدس يجعلنا نتساءل بداية عن سر غيابه؟... خاصة وأن معنى التسامح هو القدرة على تحمل الآخر، المناقض لمنظومتنا الفكرية والأخلاقية. غير أننا نجد في القرآن الكريم مصاديق هذا اللفظ؛ كالصفح والعفو والاختلاف والتعدد... الخ، وهي تتكرر في غير ما موضع. مثل:

— {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين} (4).

— {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم إنا الله عليمٌ خبيرٌ} (5).

— {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليمٌ} (6).

— {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (7).

— {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} (8).

— {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (9).

من خلال الآيات السابقة، يمكن أن نستخلص ركائز التسامح في القرآن الكريم، فهو قائم على:

• إقرار التعدد والتنوع، فهو ظاهرة طبيعية، وسنة كونية، وكما يجب على المسلم أن يؤمن بوحداية الخالق، عليه أن يؤمن بتعددية الخلق في مجالات شتى. {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} (10).

• أن اختلاف الدين واقع بمشيئة الله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (11). وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (12).

• حساب المختلفين في دياناتهم ومذاهبهم واتجاهاتهم الدينية والأخلاقية التي نشأوا عليها، ليس إلينا، ولكن إلى خالق الجميع، إلى الله وحده، وليس في هذه الدنيا، ولكن في الدار الآخرة، يوم القيامة. قال تعالى: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، اللَّهُ يَخُكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (13). وفي سياق آخر يقول له في شأن أهل الكتاب: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (14). وكذلك: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (15).

• الإسلام ينظر إلى البشرية كلها، — أيا كانت أجناسها وألوانها ولغاتها وأقاليمها وطبقاتها — بوصفها أسرة واحدة. قال تعالى: {يا أيها الناس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} (16).

• تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لونه أو لغته أو إقليمه أو طبقته الاجتماعية التي ينتسب إليها، أو حتى دينه الذي يعتنقه ويؤمن به. وذلك أن أساس التكريم في نظر القرآن هو: الآدمية ذاتها، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (17).

هذه أهم الركائز التي يدور حولها مفهوم التسامح في القرآن الكريم، وهي التي من شأنها أن تضبط نظرة المسلم لنفسه وللآخرين، حينما تجعل من الحكم على الآخر ومحاسبته أمراً إلهياً صرفاً.

2. تجليات المفهوم القرآني للتسامح في الواقع.

«شواهد من تاريخ المسلمين»:

أ — حروب الردة:

لم يكذ النبي صلى الله عليه وسلم ، يسلم روحه الشريفة إلى بارئها حتى واجهت القيادة الجديدة للمسلمين في مركز الخلافة بالمدينة المنورة تحدياً من طرف عدد من القبائل العربية التي امتنعت عن أداء ما كانت تخرجه من زكاة. قال الطبري: «وقد جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة فلم يقبل ذلك منهم وردهم»⁽¹⁸⁾. فعزم أبو بكر الصديق على قتال تلك القبائل، فقال عمر بن الخطاب: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». فقال أبو بكر الصديق: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله، لقاتلتهم على منعها.

بهذا المنطق الذي اتبعه الصديق في قتال من ينكر جزءاً من الدين، ولو تأويلاً وفهماً، حيث فهمت بعض القبائل أن الغرض من دفع الزكاة للرسول صلى الله عليه وسلم هي كونه كان يستغفر لهم، يقول ابن كثير في البداية: «وذكر أن منهم — أي المرتدين — من احتج بقوله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم}»⁽¹⁹⁾... قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وبالتالي بانقضاء السبب بوفاته تسقط عنهم الزكاة، وهذا يوقعنا في معضلة أولى واجهها مفهوم التسامح في إحدى ركائزه القرآنية مثله في حصر فعل حساب المخالف لله وحده. وربما هذا هو الرأي الذي كان راجحاً عند الصحابي عمر بن الخطاب يومها.

ب . حكم المرتد:

كيف ينسجم الحكم بقتل المرتد مع مبدأ الحرية؟ خاصة إن المرتد عن الإسلام لم يقصد بخروجه زلزلة عقائد المسلمين، أو فتنهم والخروج عن النظام، فهل يحاكم صاحب هذا الارتداد بالقتل كما يرى فقهاء المسلمين ذلك؟، أين نذهب من الآية: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ}»⁽²⁰⁾. هنا نجد الفعل التأويلي للآيات القرآنية، حيث يظهر لنا من يقول بأن الإسلام أعطى للناس حرية الرأي والفكر، هو قول كفري ويخالف شرع الله الذي جاء في الآية: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}»⁽²¹⁾.

وهذا القول في الواقع مناقض لركيزة لا إكراه في الدين، فالإكراه والقمع وتكميم الأفواه وقطع الرقاب لا يجدي نفعاً، لأن من يختار الكفر أو الشرك سيجد متسعاً لذلك مهما زادت الضغوط. ولو كان الله مريداً لذلك لأجبر الإنسان على الإيمان تكويناً. ويرى آخر أن الإسلام ليس بدعاً في هذا المجال «فكما لا يمكن للديمقراطية الغربية مهما آمنت بالحرية الشخصية أن تسمح للأفراد بمناوأة فكرة الحرية نفسها وتبني أفكار ديكتاتورية، كذلك لا يمكن للإسلام أن يقر أي تمرّد على قاعدته الرئيسية»⁽²²⁾.

وهذا المنطق مردود عليه، حيث أن الديمقراطية الغربية لا تمنع الإنسان من تبني الأفكار الديكتاتورية، ولا تعاقبه لمجرد اعتقاده بها، وإنما تحاسبه على الدعوة إليها والعمل لأجل تحقيقها بما يعرض النظام الديمقراطي للخطر.

ج . الفتوحات الإسلامية:

يرى أنصار حركة الفتوحات الإسلامية أن الدافع وراء ذلك كان الامتثال لأمر رباني، فالمسلمون حملة رسالة عالمية، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}»⁽²³⁾. فوفق هذا المنظور؛ فقد انطلق الرعيل الأول من المسلمين حاملين رسالتهم إلى شعوب العالم، لكنهم حملوا إلى جانب الرسالة السيف، فقد جاءت الآية 29 من سورة التوبة لتقول: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}»⁽²⁴⁾.

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع للهجرة. وقوله: «حتى يعطوا الجزية»، أي إن لم يسلموا «عن يد»، أي عن قهر لهم وغلبة، «وهم صاغرون»، أي ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء.

وهكذا انطلق الفتح الإسلامي الذي يسميه البعض غزواً، والذي يعني استعمال القوة والسيوف بغية نشر الإسلام وتطهير الأرض من الكفر والكافرين. وقد عُرفت الأفعال الجهادية في عهد الرسول بالغزو أو الغزوات، فكانت غزوة أحد، وغزوة حنين، وتبوك... أما كلمة الفتح؛ فهناك من يرى أنه مصطلح مذهب وعاطفي استخدم للتخفيف من وقع وهول الغزو، غير أنه غير صادق، فهو حاضر حيث يتم تبليغ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويختفي ويتنحى، تاركاً مكانه لمصطلح (الغزو) عند الإحتكام للسيوف وإراقة الدماء، والأصل في الفتح هو تبليغ الدين بالسبل السلمية.

والمتتبع لتاريخ الفتوحات الإسلامية يجد أنها في أغلبها جهاد الطلب (فعل هجومي)، استعملت فيه القوة والقتل والسبي، فهو غزو أكثر منه فتح. وربما للتدليل على هذا الرأي يذهب أصحابه إلى طرح إشكالية الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا، فالأمازيغ لم يهاجموا الإسلام في أرضه ودياره، كل ما فعلوه هو الدفاع المشروع عن بلادهم وأراضيهم وأرزاقهم وعيالهم ضد طلائع وجحافل جيوش قادمة من المشرق العربي.

فلقد استمرت عملية غزو إفريقية مدة طويلة قدرها المؤرخون بأزيد من سبعين (70) سنة، أي من 25 هجرية إلى غاية نهاية ولاية موسى بن نصير عام 95 للهجرة، في حين أنها لم يزد غزو مصر عن عامين، والشام عن سبع سنين، فالغزو العربي للشام ومصر كان فاصلاً في سنواته الأولى في حين تأخر في شمال إفريقيا.

فصل المقال، أن حركية ما سمي بالفتوحات الإسلامية لشمال أفريقيا بتعدد غزواتها الثمانية، طول مدتها (70) سنة، صاحبها الكثير من الأخطاء المرتكبة، وهو ما يدعونا إلى طرح سؤال صريح هو: هل الأخطاء المرتكبة أيام الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا هي من تعاليم القرآن؟ أم أنها من نسج الفقهاء بتأويل فاسد لآيات الجهاد؟.

ثالثاً: معضلة التسامح في الإسلام بين النسخ والتأويل:

جاء في صحيح مسلم: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»... مثل هذا الحديث الذي يروى في صحاح الكتب الإسلامية يطرح معضلة رئيسية قد يتجنب الكثير مناقشتها، وهي النصوص التي تظهر الإسلام في صورة الدين غير المتسامح مع الآخر المخالف.

فآية السيف نسخت ما قبلها، {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} ⁽²⁴⁾، وكذلك: {وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة} ⁽²⁴⁾. فبعد آية السيف أصبح أهل الأرض ثلاثة؛ كما يقول ابن القيم: «مؤمن آمن، ومعاهد مسلم، وكافر خائف، إما أن يدفع الجزية، وإما يؤمن، وإما يقاتل، فلذلك كان المسلمون يعرضون هذه العروض الثلاثة... إسلام أو جزية أو سيف. منذ أن نزلت آية السيف حتى يومنا هذا. انتهى الأمر. أما مشركوا جزيرة العرب فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أي جزيرة العرب لا يقبل منها الجزية؛ إما الإسلام وإما القتل».

إن لم يتجرأ العلماء الأفاضل على رفض التفاسير التراثية لهذه النصوص، وبقينا نصر على ضرورة فهم النصوص الدينية وفق فهم السلف لها، فسيبقى الإرهاب يستنسخ نفسه، وسيكون الكلام عن التسامح الديني ووسطية الإسلام واعتداله وتقبله للآخر مجرد كلام

طوباوي لا جود له على أرض الواقع.

خاتمة:

التسامح ليس مسألة تهاون أو تساهل، بل هو المعاملة بالمثل والمساواة بين الشعوب أو المجتمعات في الحريات والحقوق والواجبات. هذا المنظور لمفهوم التسامح الذي يدعو إلى المساواة بين جميع المجموعات العرقية وجميع المجتمعات يبدو أنه لم يكن موجوداً. في الواقع، في العصور الوسطى أو في العصر الحديث، سواء في الشرق أو في الغرب. هذه النتيجة تسمح لنا أن نستنتج نوعاً من استقلالية النظرية عن الممارسة.

لكن مع ذلك، لا يمكننا أن ننكر وجود التسامح في تاريخ الإسلام والمسلمين، ولو لم يرتق إلى مفهوم فلسفي أو قانوني. لأنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال محاكمة التاريخ الإسلامي بقوانين اليوم. فهذه الورقة محاولة لفتح النقاش حول موضوع فهم النص الديني من طرف الفاعل الاجتماعي في جزئية التسامح، بغض النظر عن كونه من السلف أو الخلف، وهذا بغية أنسنة الصورة المثالية _ السلف _ فهم أناس عاشوا مثلنا ضمن سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية معينة، واجتهدوا ضمن هذه السياقات على إنتاج فهم معينة تتلاءم مع ظروفهم. ولا يلزمنا _ حسب رأيي _ إعادة إنتاج تلك المفهوم، بالقدر الذي تتوافق فيه مع الزمان والمكان الذي نحيا فيه

الهوامش:

- (*) بو جمعة جاب الله: أستاذ جامعي، «جامعة زيان شريف»، ولاية الجلفة (الجزائر).
- (1) الحاج أومنة دواق، مفهوم التسامح المنشأ والخصائص - بتصرف.
- (2) الكتاب المقدس: العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح 05، العدد 47/43، دار الكتاب المقدس، ط 14، 2007، ص.ص: 6-7.
- (3) محمد أركون، من فيصل التفرقة إلى فصل المقال... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة: هاشم صالح، ط 02، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1995، ص: 109. (بتصرف).
- (4) القرآن الكريم، سورة هود، الآية رقم: 118.
- (5) القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية رقم: 13.
- (6) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم: 256.
- (7) القرآن الكريم، سورة النحل، الآية رقم: 125.
- (8) القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية رقم: 96.
- (9) القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية رقم: 34.
- (10) القرآن الكريم، سورة الروم، الآية رقم: 22.
- (11) القرآن الكريم، سورة يونس، الآية رقم: 99.
- (12) القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية رقم: 35.
- (13) القرآن الكريم، سورة الحج، الآيات رقم: 68 - 69.

- (14) القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية رقم: 15.
- (15) القرآن الكريم، سورة الحج، الآية رقم: 17.
- (16) القرآن الكريم، سورة النساء، الآية رقم: 01.
- (17) القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية رقم: 70.
- (18) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1983، ص: 474.
- (19) القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية رقم: 103.
- (20) القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية رقم: 29.
- (21) القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية رقم: 39.
- (22) حسين الخشن، الفقه الجنائي في الإسلام _ الردة نموذجا _، مؤسسة الانتشار العربي، 2011، ص: 30.
- (23) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم: 143.
- (24) القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية رقم: 29.